بناء المجتمع العراقي في العصر العباسي

(دراسة تاريخية عن الطوائف الدينية والطبقية وعناصر السكان)

للدكتورة مليحة رحمة الله

قسم التاريخ ــ كلية الآداب
جامعـــة بغـــداد

نهض العراق بدور كبير أيام مجد الدولة الأســلامية وعظمتها . وحسب العراق أنه ظل بضعة قرون قصبة الخلافة العباسية ، وهي الخلافة التي اتجه اليها الشطر الأكبر من المسلمين بقلوبهم ودانوا لطاعتها . واذا كان القرنان الثالث والرابع للهجرة يمثلان أزهى أيام الحضارة العربية الاسلامية والعصر الذهبي لأمجادها ، فان هذه الصفحة المشرقة ارتبطت ارتباطا واضحا بالعراق ، الذي كان عندئذ بمثابة القلب النابض بالحياة في جسم الدولة الاسلامية الكبيرة .

وقد ساعد ذلك الوضع الممتاز الذي احتله العراق وسط بقية البلاد والأمصار الاسلامية في العصر العباسي على اعطائه طابعا خاصا مميزا ، وبخاصة في تكوينه وبنائه الاجتماعي . ذلك أن العراق غدا في ذلك العصر مقصد علماء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وملتقى الرحالة والقصاد ، وهدف الرسل والمبعوثين . ومن هؤلاء وأولئك من طاب له العيش بالعراق ، فاختار الاقامة على مقربة من الخلافة ، يحظى ببركتها وينعم بما يصيبه من كرمها واغداقها ، وينهل من فيضها وجودها ــ وهكذا تجمعت بعض العوامل التي ساعدت على تعدد الأجناس والطوائف في العراق في ذلك العصر .

وبالاضافة الى ذلك لا تنسى أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الموالي والفرس واتخذت منهم في عصرها الأول دعامة تستند اليها وركيزة اعتمدت عليها في رفع صولجان ملكها . وعندما ضاق الخلفاء العباسيون ذرعا بازدياد نفوذ الفرس في شئون الدولة ، اتجهوا نحو الأتراك واتخذوا منهم بطانة لهم وقوة تساعدهم على الاحتفاظ بملكهم ضد الأخطار التي أخذت تهدد كيان دولتهم في

الداخل والخارج فى العصر العباسى الثانى . وبذلك شاءت الظروف أن يصبح العراق مجمعا للعرب والفرس والترك جميعا ، قد تتعارض مصالحهم وتتضارب أحيانا ، ولكن الكل يربطهم رباط واحد هو رباط الاسلام ويوحد بينهم شعور الولاء للخلافة .

فاذا أضفنا الى هذا كله موقع العراق نفسه ، أدركنا فى النهاية السرفى تعدد العناصر والطوائف التى شهدها العراق فى العصر العباسى . فالعراق يمثل الباب الشرقى للوطن العربى ــ ولا أقول الاسلامى ــ ومعنى ذلك أنه كان على اتصال مباشر أو غير مباشر بالعناصر الاسلامية ــ غير العربية ــ التى عاشت فى غرب القارة الآسيوية ووسطها . والعراق الذى يمتد من الخليج العربى جنوبا حتى أطراف الشام والأناضول شمالا كان دائما أبدا طريقا حيويا للاتصال بين الشرق والغرب وشريانا أساسيا تنتقل عن طريقه حاصلات الشرق الأسيوى الى الغرب الأوروبى . ويثبت التاريخ فى كل زمان ومكان أن طرق التجارة ومحطاتها هى المراكز الطبيعية لالتقاء الحضاراتوالأفكار والشعوب والأجناس ، فتتعدد فيها الاجناس والطوائف بقدر تعدد البضائع والعملات .

وفى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نلقى نظرة فاحصة على البناء الاجتماعى للعراق فى العصر العباسى .

١ ــ الأتراك :

ظهر الأتراك بأعداد كبيرة فى المجتمع العباسى لأول مرة فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وذلك فى عهد المأمون ، وأخذ عدد الأتراك فى الازدياد منذ بداية القرن الثالث الهجرى ، فكون منهم المعتصم جيشا منظما اعتمد عليه فى خلافته . يقول أبو المحاسن[١] : ان المعتصم ألبس غلمان الأتراك الديباج ومناطق الذهب وأمعن فى ثرائهم سنة عشرين ومائتين ، حتى سيطروا تدريجيا على جهاز الدولة فبرز منهم قواد اشتهروا بشجاعتهم وقوة شوكتهم ، أمثال الأفشين وأشناس وبغا ووصيف وايتاخ[٢] ، وغيرهم من القواد .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٣٣ ، الطبرى ــ تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٢٢٤ ، المسعودى مروج الذهب جـ ٤ ص ٩

(٢) اليعقوبى ــ تاريخ جـ ٢ ص ٥٧٥

وقد اقام الاتراك بعيدا عن الاسواق ومنعهم المعتصم من الاختلاط بالناس ، فاشترى لهم جوارى تركيات ، وزوجهم بهن ومنعهم من التزاوج مع المولدين ، واجرى لهم رواتب خاصة[١] .

وقد ازدادت شوكة الاتراك فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، حتى يقول صاحب الفخرى[٢] كان الخليفة فى يدهم كالاسير ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، قعد خواصه واحضروا المنجمين والأتراك فى مجلسه ، وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة . — وكان بالمجلس بعض الظرفاء — ، فقال : أنا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول انه يعيش وكم يملك قال : مهما اراد الاتراك ، فلم يبق احد فى المجلس الا وضحك[٣].

وكان هناك الى جانب الجند الاتراك ، الجوارى التركيات اللاتى اشتهرن بجمالهن ، يقول ابن بطلان[٤] : ان التركيات قد جمعن الحسن والبيان ، وكانت قصور الخلفاء والامراء والعظماء تأوى كثيرا من الجوارى ، بل ان بعض الخلفاء وكبار رجال الدولة اتخذوا الجوارى التركيات زوجات لهم[٥] . وكان للجوارى تأثير كبأ فى الحياة الاجتماعية فقد نشرن فن التجميه وابتكار الأزياء فى المجتمع العراقى عامة ، والبغدادى خاصة[٦] . فضلا عن اهتمامهن بالتأنق فى الملبس والطعام والشراب[٧] . والاعتناء بالنظافة واللياقة .

٢ — العنصر الفارسى :

تغلغل هذا العنصر فى المجتمع العباسى ، منذ قيام دعاة العباسيين بنشر دعوتهم فى أواخر العهد الاموى . وقد جنى كل من العرب والفرس فوائد كثيرة ، من جراء اختلاطهم ببعض ، فالعرب لهم قابلية التعليم السريع ، اما الفرس فهم أصحاب حضارة قديمة موروثة ، فأخذ العرب النظم ومختلف العلوم من الفرس .

---

(١) اليعقوبى — البلدان ص ٢٣
(٢) ابن طباطبا — الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠
(٣) ابن طباطبا — الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠
(٤) انظر : احمد امين — ظهر الاسلام جـ ١ ص ٣٥
(٥) عبد الرحمن الأربلى — الذهب المسبوك ص ٢٢١ ، ٢٣٧
(٦) أحمد ممدوح حمدى — معدات التجميل بمتحف الفن الاسلامى ص ٨
(٧) ابى الطيب محمد بن اسحاق الوشاء — الموشى ص ١٦٢ — ١٦٤

اما اثر الفرس فى المجتمع ، فكان واسعا وظاهرا ، اذ ابتدأ منذ قيام الدولة العباسية فى مستهل القرن الثانى للهجرة كما تقدم . وتجلى فى عدة نواح منها بناء القصور ، وابتكار الأزياء ، وتعدد أنواع الطعام ، وادخال جميع وسائل الترف والبذخ فى المجتمع العراقى . كبناء القصور ، وزخرفتها وتأثيثها بأفخر الاثاث[١] واحياء المجالس الغنائية ، ومجالس الشراب ، وفى الملابس ، كالقلانس، والأقبية ، والسراويل والجوارب ، وغيرها من الألبسة التى انتشرت فى المجتمع العباسى ، ما هى الا ألبسة فارسية الأصل ، كما تجلى التأثير الفارسى فى أزياء النساء ، من استعمال الحلى والمجوهرات والأحزمة ، والنقش على الاردية والعصائب[٢] . وتجلى ايضا ، فى أدوات الطعام التى كانت تستخدم فى موائد الخلفاء[٣] والوزراء[٤] ، وكانت مصنوعة من الذهب والفضة[٥] والبلور[٦] . هذا وكان للجوارى الفارسيات ، تأثير كبير فى المجتمع العراقى ــ كما كان للجوارى التركيات ــ فنشرن أنواعا من الألبسة ، كما أدخلن صورا من التزين لم تكن ملحوظة من قبل .

وكان للعنصر الفارسى ، أثر كبير فى اهتمام الخلفاء العباسيين ، ورجال دولتهم بالاحتفال بعيدى النوروز والمهرجان ، وهما من الأعياد الفارسية[٧] .

الروم :

لقد جيء بهم كأسرى حرب من أراضى الدولة البيزنطية ، واعتبروا من الرقيق الابيض وكثر عدد المماليك الروم من رجال ونساء وغلمان ، فى بيوت الخلفاء والاغنياء .

وقد كثر عدد النساء الروميات فى العراق ، عن طريق الاسترقاق ، واعتبرن جوارى وانتشرن تبعا لذلك فى قصور الخلفاء والاغنياء ، لاتصافهن بالجمال ،

---

(١) أحمد موسى ــ الفن الاسلامى ص ٣٩
(٢) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد جـ ٨ ص ١٣٥
(٣) غريب ــ صلة الطبرى ص ١٢٨ ، التنوخى ــ نشوار المحاضرة جـ ١ ص ١٤٤ ــ ١٤٦
(٤) هلال ابن الصابى ــ الوزراء ص ٢١٥ ــ ٢١٦
(٥) الغزالى ــ احياء العلوم جـ ٢ ص ١٦
(٦) الثعالبى ــ يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٣٧٧ ، احمد امين ــ ظهر الاسلام جـ ١ ص ١٠٤
(٧) القلقشندى ــ صبح الاعشى جـ ٢ ص ٤٢٠

يقول ابن بطلان فى وصفهن « الروميات بين شقر ، سباط الشعور ، زرق العيون الى آخره . وقد برعن فى الغناء والضرب على الآلات الموسيقية[١] » كما اصبح بعضهن فى منزلة رفيعة عند الخلفاء والاغنياء ، عندما اصبحن امهات وزوجات لهم ، ويذكر انه كان لبعض الروم الذين استوطنوا الدولة الاسلامية ، نشاط أدبى وعلمى ملحوظ ، من بينهم الشاعر المعروف ابن الرومى ، وابو الفتح ابن جنى الذى نبغ فى النحو والصرف[٢] .

عناصر الرقيق :

نوعان من الرقيق ، الأسود والابيض ، ويشمل الأول ما يجلب من ساحل افريقيا الشرقى وهم الزنج[٣] . أما الثانى وهو الابيض ويشمل الترك ، والروم ، والأرمن وغيرهم[٤] .

ولأهمية الرقيق وكثرته أنشئت له أسواق كبيرة ، يشرف عليها تجار يعرفون بالنخاسين ، وكان ببغداد شارع يعرف باسم دار الرقيق[٥] . كما كان هناك نواح بهذه المدينة ، اطلق عليها باب النخاسين[٦] . وكان بسامراء سوق لبيع الرقيق فى القرن الثالث الهجرى . وقد يباع الرقيق فى البيوت الخاصة ، أو بواسطة التجار[٧] ومما يجدر ذكره ، أن الرقيق فى القرن الرابع الهجرى ، قل عدده ، وارتفع ثمنه ، بسبب انقطاع وروده من الاندلس وبلاد الدولة الرومانية الشرقية[٨] .

وكان يقوم هؤلاء الرقيق ، بأعمال شاقة مختلفة ، فى المجتمع العباسى ، فمنهم من كان يقوم بالخدمة فى بيوت الاغنياء ورجال الدولة ، وكان لدى الخليفةالمقتدر من هؤلاء ، أحد عشر ألف خادم ومنهم من كان يقوم بحراسة النساء ، وخدمتهم، ويعرفون بالخصيان[٩] ومنهم من يقوم بحراسة القصور . ومن كان يقوم بفلاحة

---

(١) الاصبهانى ــ الاغانى جـ ١٩ ص ١٣٨
(٢) أحمد امين ــ ظهر الاسلام جـ ١ ص ٦٧ ــ ٦٨
(٣) الدورى ــ تاريخ العراق الاقتصادى ص ٦٤
(٤) أحمد أمين ــ ظهر الاسلام جـ ١ ص ١٣٠
(٥) الاصفهانى ــ الأغانى جـ ١٠ ص ٩٥
(٦) اليعقوبى ــ البلدان ص ١٣
(٧) جورجى زيدان ــ التمدن الاسلامى جـ ٥ ص ٢٣
(٨) جرجى زيدان ــ التمدن الاسلامى جـ ٥ ص ٢٣
(٩) البيهقى ــ المحاسن والمساوىء ص ٥٧١

الأرض ، وهم نوعان : السود (الزنج) ، والنوع الثانى النبط ، ويطلق عليهم الافغان[١] ويعيشون فى القرى وقد اعتبروا تدريجيا مرتبطين بالأرض ، ينتقلون من مالك الى آخر ، من الأرض .

كما كان بعض الجوارى يشتغلن بالغناء ويعزفن بالقيان ، يقول أبو حيان التوحيدى[٢] : « وأحصينا فى بغداد جانب الكوخ ، ستين وثلاثمائة جارية مغنية » . وكان للجارية التى تتصف بالجمال ، الف دينار [٣] أما صاحبة الصنعة ، فكان ثمنها غاليا [٤] . فالمتوكل احتفظ بالأربعة آلاف وحرص المقتدر على اقتناء عدد كبير من الجوارى [٥] . وقد علا شأن بعض الجوارى ، بعد أن تزوج بهن الخلفاء ، ولعبن دورا مهما فى سياسة الدولة كالخيزران [٦] . والسيدة أم المقتدر [٧] وقبيحة زوجة المتوكل[٨] وغيرهن من أمهات وزوجات الخلفاء . وكذلك القهرمانات اللواتى كن يعشن فى قصور الخلفاء ، أمثال علم[٩] ، وثملى[١٠] . وقد تحدث ابن بطلان[١١] فى رسالته (شرى الرقيق) عن ألاعيب النخاسين فى تغيير الوجه والجسم ، فقال : انهم كانوا يستخدمون الأصباغ ، والدهون والروائح فى تغيير ملامح الوجه ، وجعله جميلا . وقد أدى التوسع فى اقتناء الجوارى ، ودخولهن بيوت الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، الى انتشار الفساد ، وكان لهذه الظاهرة الاجتماعية ، تأثير بالغ فى نفوس أهل الدين والتقوى وبخاصة الصوفية ، فاندفعوا الى الزهد ، حرصا منهم على الدين والتقاليد الاسلامية .

---

(١) الدورى ــ تاريخ العراق الاقتصادى ص ٦٦
(٢) الامتاع والمؤانسة جـ ٢ ص ١٨٣
(٣) آدم متز ــ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٨٠
(٤) التنوخى ــ نشوار المحاضرة جـ ١ ص ١٣٢ ، ابن الجوزى ــ أخبار الظراف ص ٩٧
(٥) محمد جمال سرور ــ الحضارة الاسلامية فى الشرق
(٦) الطبرى ــ تاريخ الامم والملوك جـ ٦ ص ٤٤٧
(٧) مسكويه ــ تجارب الامم جـ ٢ ص ١٥٣
(٨) ابن السام الفاطمى ــ النبراس ص ٣٦
(٩) مسكويه ــ تجارب الامم جـ ٢ ص ٧٥
(١٠) ابن الجوزى ــ المنتظم جـ ٦ ص ١٤٨
(١١) شرى الرقيق وتقليب العبيد ص ٣٧٩ ــ الشيزرى ــ آداب الحسبة ص ٥٠

أما الأرقاء من الذكور ، فهم نوعان ، الغلمان المماليك ، والخصيان[١] . وفى العصر العباسى انتشر الخصيان فى قصور الخلفاء ، ورجالات الدولة وقد وصفهم الكتاب ومن بينهم الجاحظ فى كتاب (فاخرة الجوارى والغلمان) .

١ ــ الرقيق الاسود (الزنج) :

أدى ظهور الملكيات الواسعة فى منطقة البصرة ، وتوفر رؤوس الأموال الكبرى لدى كبار الملاك ، الى شراء مجموعات من الرقيق الأسود ، لاستصلاح الأراضى الزراعية . وقد عاشت هــذه المجموعات ، بعيدة عن حقيقة المجتمع العباسى ، لا تعرف سوى العمل المضنى ، وطاعة أصحاب الأراضى ، فكان هذا العنصر مستعدا لتلبية أى نداء يدعوه الى القيام بثورة ضد ملاك الأراضى ، لتحريرهم من الرق ، واستعادة حقوقهم . وكان ضعف الحكومة المركزية من بين الأسباب التى أدت الى ثورة الزنج لفترة طويلة . وكانوا يدعون الى الاصلاح الاجتماعى ، باسم الدين ، وقد استغل العامة ، ومن بينهم أرباب الصنائع والمهن بصفة خاصة ، هذا التذمر ، وأخذوا يتكتلون ، ويظهرون استيائهم من السلطة الحاكمة . وتجلى ذلك فى الحركات الثورية المتمردة على السلطة . كثورات ــ الجند الذين كانوا يطالبون بأرزاقهم .

٢ ــ الطوائف الدينية

(أ) الاشراف :

ظهر فى العصر العباسى جماعة من المسلمين ، تفتخر بقرابتها من الرســول وبنسبها القرشى ، متمسكة بما جاء فى القرآن الكريم من الآيات التى أشارت الى قرابة الرسول كقوله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[٢] وغيرها من الآيات ، ومتخذة من القرابة صفة دينية تميزها عن غيرها ، وقد أطلق عليهم الأشراف أو أهل البيت . وتشمل طبقة الأشراف بنى هاشم من العباسيين والعلويين[٣] ومع ما كان بين هذين الفرعين من خلاف ونزاع،

---

(١) البيهقى ــ المحاسن والمساوىء ص ٥٧٠ ــ ٥٧١
(٢) سورة الاحزاب آية ٣٣
(٣) ابن طباطبا ــ الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٤٧

فان العلويين أشركوا فى بعض المناصب ومنها القضاء ، وامارة الحج ، والنقابة ، كما كان لهم رواتب خاصة .

(ب) أهل الذمة :

تمتع أهل الذمة بكثير من ضروب التسامح الدينى ، فأقاموا الشعائر الدينية فى أمن ودعة ، وشاركوا المسلمين فى وظائف الدولة وفى ممارسة المهن الحرة . ولم يتدخل خلفاء بنى العباس بصورة عامة فى شؤونهم الدينية الا فى بعض الفترات حيث وضعت القيود على الالبسة ، وبناء البيع . وذلك حين يتشدد بعض الخلفاء فى معاملتهم أو حين يسند الى أحدهم ، منصب كبير فى الدولة . وقد تجلت الحالة الأولى فى عهد الرشيد ، والمتوكل ، والمقتدر . فقد أمر الرشيد بهدم الكنائس فى الثغور ، وأوصى بأخذ أهل الذمة فى مدينة السلام ، بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم[١] وفى عهد المتوكل ، أمر أهل الذمة ، بوضع صور من شياطين من خشب على أبواب دورهم ، وتسوية قبورهم مع الأرض . كماحتم عليهم لبس زى خاص بهم[٢] . أما فى عهد المقتدر ، فأمر أن لا يستعان بأحد منهم فى وظائف الدولة ، وألزموا بلبس العسلى ، والرقاع من خلف ومن قدام ، وأن تكون ركبهم خشبا [٣] .

وفى أغلب الفترات كان الخلفاء يستعينون بالنصارى فى وظائف الدولة . فالمعتمد قلد من النصارى كتابا فى الدولة[٤] . كذلك استخدم الوزير الحسن بن القاسم بن وهب ، النصارى فى وظائف كتابية[٥] . كما اتخذ عضد الدولة ، نصر ابن هارون وزيرا له .

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٢٧ . ويذكر ابو يوسف فى كتاب الخراج ص ١٢٧ « ان على اهل الذمة ان يجعلوا فى اوسطهم الزنارات ، وان تكون قلانسهم مضربة وان يتخذوا على سرجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب وان يجعلوا اشراك نعالهم متينة وتمنع نسائهم من ركوب الرحائل » .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٤ ، الطبرى ـ تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٣٥٤

(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٦ ص ٨٢ ، عماد الدين الدمشقى ـ البداية والنهاية جـ ١١ ص ١٠٨

(٤) هلال ابن الصابى ـ الوزراء ص ١١٤ ، التنوخى ـ نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٣٥ ، هلال ابن الصابى ـ الوزراء ص ١١٤

(٥) غريب بن سعد ـ صلة الطبرى ص ١١٤ ـ ١١٥

وقد أذن له فى عمارة البيع والأديرة ، واطلاق الأموال لفقراء النصارى[١] ، وكان للخليفة الطائع ، كاتب نصرانى[٢] . وقد احتل الأطباء النصارى منزلة كبيرة لدى الخلفاء ، فاتخذ المتوكل يوحنا بن ماسويه ، طبيبا له[٣] وكان لا يتذوق طعاما الا بحضرته ، كما كان الطبيب بنان بن سلمون مقربا الى المعتصم[٤] .

وقد حدد الاسلام العلاقات الاجتماعية بين المسلمين ، والنصارى واليهود ، والمجوس والصابئة فسمح بزواج المسلم من أهل الكتاب ، دون أن تجبر الزوجة على ترك دينها والدخول فى الاسلام[٥] . كما أنه لا يجوز للمسيحى أن يتهود ، ولا لليهودى أن يتنصر واقتصر التغيير فى الدين على الدخول فى الاسلام[٦] . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم ، يهوديا كان أم نصرانيا[٧] وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا ، على أهل ملته ، كما ورد فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « لايتوارث أهل ملتين »[٨] .

أما الجزية ففرضت على أهل الذمة ، وأعفى منها النساء ، والصبيان ، والأطفال والمرضى ، والعاجزون ، والرهبان[٩] . وقد راعى الحكام المسلمون ، الرفق فى جباية الجزية من أهل الذمة[١٠] .

وكان لأهل الذمة ، خلال القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، لباس خاص يتميزون به عن المسلمين عامة ، فاليهود ارتدوا البراطيل الطويلة على حين اتخذ النصارى البرانس أول الأمر ، ثم لبسوا القلانس الطويلة[١١] كما لبس اهل الذمة الخمار[١٢] .

---

(١) ابن الاثير ــ الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ١٠١
(٢) آدم متز ــ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٩٠
(٣) ابن ابى اصيبعة ــ طبقات الاطباء ص ٢٤٦
(٤) ابن العبرى ــ مختصر تاريخ الدول ص ٢٤٣
(٥) ابن رستة ــ الاعلاق النفسية ص ٢٠٣
(٦) متز ــ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٥٦ ــ ٥٧
(٧) محمد جمال سرور ــ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٧٤
(٨) هلال ابن الصابى ــ الوزراء ص ٢٧٠
(٩) ابو يوسف ــ الخراج ص ١١٢
(١٠) ابو يوسف ــ الخراج ص ١٢٥
(١١) آدم متز ــ الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٨٤
(١٢) الجاحظ ــ البيان والتبيين جـ ١ ص ٤١

(جـ) الصابئة :

أما الصابئة فلم يكن تأثيرهم فى المجتمع فعالا وظاهرا ، اذ لم يكن لهم نشاط كبير كما كانت الحال بالنسبة للمسلمين ، واليهود . ويرجع السبب فى ذلك ، الى قلة عددهم وعدم تضاهرهم مع مخالفيهم فى الدين ، ولسرية تعاليمهم الدينية.

أما المجوس وهم أتباع زردشت . اتخذوا من بيوت النيران معابد لهم وظهرت هذه الديانة فى فارس ثم انتقلت الى العراق[١] . وقد اعترف بهم فى القرن الرابع الهجرى أهل الذمة كالنصارى واليهود والصابئة[٢] .

وكان من أثر وجود المجوسية فى بعض أرجاء الدولة الاسلامية فى الشرق كالعراق وفارس خاصة ، ان ظهرت عدة فرق دينية فى المجتمع العباسى متأثرة بمبادىء المجوس لعبت دورا كبيرا فى المجتمع كالخرمية والمحمرة وغيرهـا . وقد ظهر نشاط هذه الفرق فى القرن الثالث الهجرى وأدى الى قيام ثورات ضد الخلافة العباسية[٣] . وعرف المجوس بكونهم تجار وأهل حرف فنية[٤] ، واشتهر منهم بعض الأدباء كابن المقفع[٥] . ومن الخلفاء من استكتب المجوس فى وظائف الدولة فالرشيد استكتبهم على ديوان الخراج وكذلك فعل المأمون[٦] .

٣ ـ طبقات المجتمع العراقى

(أ) العلماء :

كانت بغداد مركزا للعلم والعلماء ، منذ مستهل القرن الثالث الهجرى ، حتى أواخر عهد بنى بويه[٧] . وكانت للعلماء منزلة كبيرة لدى الخلفاء ، ورجالات الدولة ولدى الطبقة العامة . وبين العلماء من كان فقيها أو فيلسوفا ، أو مؤرخا .

---

(١) المسعودى ـ مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٣
(٢) محمد جمال سرور ـ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٧٣
(٣) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٥ ص ١١٣
(٤) المقدسى ـ احسن التقاسيم ص ٢٢٩
(٥) الجاحظ ـ ثلاث رسائل ص ٤٧
(٦) الجاحظ ـ ثلاث رسائل ص ٤٧ ـ ٤٨
(٧) احمد امين ـ ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٢٢١

ولم يكن العلماء يشتغلون بمهن أخرى ، سوى العلم ، اللهم الا العدد القليل منهم[١] . كما أن غالبيتهم كانت فى رغد من العيش . ولم يتميزوا عن غيرهم من سائر أفراد الشعب ، الا فى الملبس ، فيرتدى القضاة ، والفقهاء ، المبطنة والطيلسان الأسود ، والدراعة[٢] ، والقلانس المستديرة ، التى ظلت مستعملة حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم أبدلت بالعمائم السود المصقولة[٣] . وكانوا يلبسون الصوف الأبيض ، ولا يلبسون الحرير والملون الا فى بيوتهم[٤] .

(ب) التجـــار :

كان أغلبهم يدين بالاســـلام ، وأقلية من أهل الذمة ، وبخاصة اليهود[٥] وهم نوعان ، أولهما كبار التجار وصغار التجار .

واتسع نفوذ التجار ، وبخاصـــة فى القرنين الثالث والرابع بعـــد الهجرة ، نتيجة ازدياد الترف ، والبذخ ، لدى رجال الحكم ، وعلى رأسهم الخليفة[٦] . وعلى الرغم من اتصالهم بهؤلاء الرجال الا أنهم لم يصبحوا يوما فى مصـــافهم الاجتماعية ، وانما كانوا يعتبرون غالبا ، من طبقة العـــامة ، حتى فى نظر الأدباء ، والعلماء ، كما اننا نجـــد طائفة الأشراف ، حاولت أن تمنع أبنائها من الاشـــتغال بالتجارة ، لأنها فى نظرهم مهنة لا تليق بهم اجتماعيا[٧] مع أن خلفاء العباسيين ، منذ أن أسست مدينة بغداد اهتموا باقامة الأســـواق فى الجانب الغربى منها ، واتخـــذوا الجانب الشرقى ، مسكنا لهم ولحاشيتهم[٨] وقد عرفت المنطقة التى تجمعت فيها أسواق بغداد ، باسم الكرخ[٩] .

أما عن مستوى معيشة التجار ، فكان مرتفعا ، حتى بالنســـبة الى بعض التجار الصغار ، كما أنه كان لبعض التجار ثقافة عالية .

---

(١) السبكى ــ قوت القلوب جـ ٢ ص ١٦٨
(٢) الاصفهانى ــ الاغانى جـ ٢ ص ٣٩٠
(٣) رسوم دار الخلافة ص ٩١
(٤) محمود محمد بن عرنوس ــ القضاء فى الاسلام ١٢١
(٥) الدورى ــ نشوء الاصناف والحرف فى الاسلام ص ١٣
(٦) التنوخى ــ نشوار المحاضرة جـ ٨ ص ٦٨
(٧) الدورى ــ تاريخ العراق الاقتصادى ص ١١٢
(٨) اليعقوبى ــ البلدان ص ١٢
(٩) غى لسترنج ــ بغداد فى عهد الخلافة العباسية ص ٢٧٣

(ج) أرباب الحرف والصناع :

كان العرب المسلمون ، ينظرون الى الحرف ، والصناعات ، نظرة امتهان [١] حتى القرن الثالث الهجرى ، ثم تغيرت هذه النظرة ، وأصبح ينظر اليها ، والى القائمين بها نظرة تقـدير ، وأكد ذلك بعض الكتاب ـ كالغزالى ـ[٢] الذين قالوا ان الصناعات أصبحت من ضرورات ومستلزمات الحياة الاجتماعية . وذلك لتنوعها وتعـددها والتفنن فيها[٣] .

وكان العمال يشكلون عدة عناصر ، وينقسمون الى فريقين : أولهما الأحرار ، وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن وهم أصحاب الصنائع . أما الفريق الثانى ، فيشمل الرقيق ، وهؤلاء يشتغلون فى الفلاحة أو خدما فى البيوت ، أو فى الصـناعات البسيطة ، كالخياطة ، والحدادة ، والنجارة ، وغيرها . وهؤلاء يشملون السواد الأعظم من الصناع[٤] .

أما عن مستوى معيشة العمال ، فكان دون مستوى التجار بكثير ، ذلك أن مواردهم كانت محدودة كما يقول الدمشقى[٥] « ان الصانع كان ليس بالفقير ، ولا بالغنى لشراء ضيعة » .

(د) العامـــة :

لم يكن لهذه الطائفة مكانة فى المجتمع العراقى ، فقد وصفهم بعض الكتاب بالجهل فى الأمور الدينية[٦] وفى النواحى الثقافية[٧] .

لم يكن للعامة لباس خاص ، تتميز به عن الطبقات الأخرى ، وكان طعامهم وأغلبهم من الفقراء[٨] يتكون من خبز الشعير والدبس والخل[٩] مع قليل من

---

(١) صالح العلى ـ التنظيمات الاجتماعية ص ٢٧١
(٢) احياء العلوم ـ جـ ١ ص ٢٣٠
(٣) هل ـ الحضارة العربية ص ٩٢
(٤) هلال ابن الصابى ـ الوزراء ص ٢٢
(٥) الاشارة الى محاسن التجارة ص ٤٣
(٦) الخطيب البغدادى ـ تاريخ بغداد جـ ٣ ص ٧٦
(٧) ابن مسكويه ـ تهذيب ص ١٢١
(٨) التوحيدى ـ الامتاع والمؤانسة جـ ١ ص ١٠٧
(٩) الكازونى ـ مقامه فى قواعد بغداد ص ٢٥ ، ابن الجوزى ـ اخبار الحمقى والمغفلين ص ١٢٩

التمر . وكان يتصدق عليهم فى مناسبات الأفراح ، والأعياد . ويدفع لهم الصدقات، الخليفة وكبار رجالات الدولة[١] .

هناك جماعة من العامة ، أطلق عليهم العيارون ، والشطار[٢] تميزت حركاتها بالطابع الثورى[٣] وبخاصة ضد السلطة الحاكمة ، وأصحاب الأموال[٤] وكانت تضم بين صفوفها مختلف الأجناس[٥] والطوائف[٦] . فمن بينهم العربى والكردى والفارسى والتركى والسنى والشيعى ، فضلا عن أرباب الحرف المختلفة.

وكان لجماعة العيارين ، والشطار ، تنظيمات عسكرية ومدنية . ففيما يتعلق بالتنظيم العسكرى ، كان لكل عشرة عريف ، ولكل عشرة عرفاء نقيب ، ولكل عشرة نقباء قائد ، ولكل عشرة قواد أمير . ولهم بزة عسكرية مكونة من خوذ ، مصنوعة من خوص ، وورق من البوارى المحشى بالحصى والرمل والجلاجل فى أعناقهم ، والصدف الأحمر والأصفر[٧] .

أما التنظيم المدنى فهو يشمل النواحى الادارية الداخلية ، ولهم مكان خفى يجتمعون فيه بعيدا عن الأنظار ، وجعلوا لهم طقوسا خاصة ، ومراسيم لابد من أدائها لمن أراد الدخول فى تنظيمهم[٨] وكذلك لباسا يتميزون به عن بقية الناس ، اذ يتزررون بالمئزر فى أوساطهم ، ويتشحون بالازار[٩] وكان لبس السراويل من اختصاصهم[١٠] .

---

(١) ابن الجوزى ــ المنتظم جـ ٧ ص ١٦٢

(٢) القشيرى ــ الرسالة ص ١١٣ ــ ١١٤ ، المسعودى ــ مروج الذهب جـ ٦ ص ٤٦٢ ــ ٤٦٣ . الطبعة الأوروبية ، ابن الجوزى ــ تلبيس ابليس ص ٣٧٨ ، (لم يميز هؤلاء وغيرهم من المؤرخين بين العيارين والشطار تميزا واضحا وقد اطلقت كلمة فتيان على الجماعتين) .

(٣) المسعودى ــ مروج الذهب جـ ٣ ص ٣١٥

(٤) الدورى ــ نشوء الحرف والاصناف ص ٣٦

(٥) ابن الجوزى ــ المنتظم جـ ٧ ص ٢٢٠

(٦) شمس الدين الذهبى ــ العبر فى تاريخ من غبر جـ ٣ ص ١٠٠

(٧) المسعودى ــ مروج الذهب جـ ٣ ص ٣١٥

(٨) ابن الجوزى ــ تلبيس ابليس ص ٣٧٨

(٩) التنوخى ــ الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ١١٢ ــ ١١٤ ، مصطفى جواد ــ أزياء العرب مجلة التراث الشعبى ص ٥ العدد ٨

(١٠) مصطفى جواد ــ أزياء العرب مجلة التراث الشعبى ص ٦ العدد ٨

بدأ ظهور العيارين والشطار ، فى هيئة جماعة عامة ، لها تنظيم عسكرى أثناء دفاعهم عن بغداد سنة ١٩٦ هـ فى الفتنة بين الأمين والمأمون[١] . ثم فى حصار بغداد الثانى سنة ٢٥٠ هـ أثناء الحرب بين المستعين والمعتز[٢] . وأصبحت لهم خلال القرن الثالث الهجرى ، قوة كبيرة منظمة ، أخذت تزداد وتهدد المجتمع ، وبخاصة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى[٣] حيث احترف بعض أفرادها السرقة وجعلوا غايتهم نهب الحوانيت ، والأسواق ، وبيوت الأغنياء [٤] وصاروا بذلك مصدرا للشغب وعدم استتباب الأمن كما يقول ابن مسكويه [٥] .

---

(١) المسعودى ـ مروج الذهب جـ ٣ ص ٣١٥
(٢) الطبرى ـ تاريخ الامم والملوك جـ ٧ ص ٣٤ وص ٤٩٠
(٣) التوحيدى ـ الامتاع والمؤانسة جـ ٣ ص ١٦٠ ، المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ١٣٠
(٤) زيدان ـ تاريخ التمدن جـ ٥ ص ٤٦
(٥) تجارب الامم ـ جـ ١ ص ٦٩

تم ـ بعون الله ـ طبع هذه المجلة بالهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية ـ مطبعة جامعة عين شمس فى ١٥ من ربيع الأول ١٣٩٠ الموافق ٢٠ مايو ١٩٧٠

مدير المطبعة

يحيى أحمد صالح